Journal Of the Iraqia University (71-2) March (2025)

ISSN(Print): 1813-4521 OnIine ISSN:2663-7502
Journal Of the Iraqia University
available online at
https://iasj.rdd.edu.iq/journals/journal/view/247

الرثاء في شعر المكزون السنجاري

م.د مي عبد الخالق عوض

تربية صلاح الدين / قسم الاشراف الاختصاص الدقيق : أدب عباسي

Elegy in the poetry of Al-Makzoon Al-Sinjari

Prof. Dr. Mai Abdel Khaleq Awad
Ministry of Education / Saladin Education / Supervision Department
Exact specialty: Abbasid literature
mai.abdul.iq@gmail.com

الملخص

شاع الرثاء كغيره من الأغراض الشعرية له أسسه الواضحة وصوره الشعرية المتواشجة مع حالة الحزن والشعور بالفقد الكبير نتيجة ذلك. والرثاء في شعر المكزون السنجاري قد أخذ ناحية الرثاء الديني في أكثره والذي كثيراً ما نجد فيه ألفاظاً دالة على الإيمان والزهد والتُقى والورع والصلاح ممن استحقها في صورة الرثاء، ونحن في هذا البحث نهدف تناول مميزات الرثاء من شعر المكزون السنجاري ولا سيما أنه تناول في رثائه شخصيات دينية لها عظيم الأثر في النفوس، بالإضافة للتعرّف على المصطلحات والمفردات الخاصة بتشكيل صورة الرثاء عند الشاعر السنجاري، وكذلك معرفة آلية التوظيف لفن الرثاء عند المكزون السنجاري، حيث تم الاعتماد على المنهج التحليلي الذي يقوم على استخدام الأدوات الإجرائية لتحليل الصور والتراكيب التي جسّدت آلية الرثاء من شعر المكزون السنجاري. حيث تمّ التوصل إلى نتائج هامة نذكر منها إنَّ آلية الرثاء عند المكزون السنجاري عكست تركيز السنجاري على تناول المعاني والصور القائمة على خاصية المراثي الدينية. وإنَّ صور الرثاء عند السنجاري تأخذ طابعاً واحداً وهي أنها متضمنة للمعاني ذات الألفاظ التي تنتمي إلى حقل دلالي واحد، فقد تناولت مفهوم الزهد والتقوى والورع في أكثره.

الكلمات المفتاحية: الرثاء، الشعر، المكزون السنجاري ، البكاء ،العزاء ، الميت

Abstract

Elegy, like other poetic purposes, has become widespread and has clear foundations and poetic images that are compatible with the state of sadness and the feeling of great loss as a result. The lamentation in the poetry of Al-Makzoon Al-Sinjari has taken the aspect of religious lamentation in most of it, in which we often find words indicating faith, asceticism, piety, piety, and righteousness from those who deserve it in the form of lamentation. In this research, we aim to discuss the features of lamentation in the poetry of the Sinjari mazun, especially since it dealt with religious figures who had a great impact on souls, in addition to identifying the terms and vocabulary for forming the image of lamentation according to the Sinjari poet, as well as knowing the mechanism of employing the art of lamentation in the Sinjari mazon. The analytical approach was relied upon, which is based on the use of procedural tools to analyze the images and structures that embodied the mechanism of lamentation from the poetry of the Sinjari makzoon. Important results were reached, including that the mechanism of lamentation in the Sinjari maqzoon reflected Al-Sinjari's focus on dealing with meanings and images based on the characteristic of religious elegies. Al-Sinjari's images of lamentation take on one character, which is that they include meanings with words that belong to one semantic field. Most of them dealt with the concept of asceticism, piety, and piety.Keywords: lamentation, poetry, Sinjari makzoon, Crying, mourning, the dead

المقدمة:

لقد شكّل الرثاء عبر العصور مادة أساسية استلهمها الشعراء كأحد الأغراض الشعرية في أشعارهم، وكثيراً ما كان اقتران الرثاء بحدث مصاب جلل، وقد تنوّعت أنواع الرثاء، فقد ظهر إلى جانب الأنواع الشائعة للرثاء ما سُمي بـ (رثاء الذات)، حيث استشعر بعض الشعراء بأهمية ذكر ما يدعو إلى تذكّر مناقبهم، فأوصوا بذلك تحت ما سُمي برثاء الشعراء لأنفسهم، كما تناولوا ذلك إلى جانب رثاء الآخرين من الأقارب أو الأصدقاء. وقد شاع الرثاء كما ذكرنا كغيره من الأغراض الشعرية له أسسه الواضحة وصوره الشعرية المتواشجة مع حالة الحزن والشعور بالفقد الكبير نتيجة ذلك.وما نجده في رثاء السنجاري يقوم في أكثره على رثاء الشخصيات الدينية، إلا أنَّ رثاءه منه ما هو مباشر موجّه إلى شخص بعينه، ومنه الآخر ما جاء بشكل ضمني غير مباشر، بمعنى إنَّ الرثاء في شعر المكزون السنجاري قد أخذ ناحية الرثاء الديني في أكثره والذي كثيراً ما نجد فيه ألفاظاً دالة على الإيمان والزهد والتُقى والورع والصلاح ممن استحقها في صورة الرثاء.

أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث في عدد من النقاط من أهمها:

١. التعرّف على ملامح الرثاء على تعدّد صوره وكيفية توظيفه في شعر المكزون السنجاري.

٢. التعرّف على المفردات الخاصة بالتعبير لدى المكزون السنجاري في إبداء طريقة رثائه المتفرّدة.

٣. بيان تفرّد المكزون السنجاري في اختياره الأوصاف والتعابير المتضمنة لمعنى الرثاء.

٤. التمييز بين أنواع الرثاء فيما إذا كان رثاء الأشخاص أو رثاء الأماكن وسواه.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى عدد من النقاط، من أهمها:

١. تناول مميزات الرثاء من شعر المكزون السنجاري ولا سيما أنه تناول في رثائه شخصيات دينية لها عظيم الأثر في النفوس.

٢. التعرّف على المصطلحات والمفردات الخاصة بتشكيل صورة الرثاء عند الشاعر السنجاري.

٣. معرفة آلية التوظيف لفن الرثاء عند المكزون السنجاري.

فرضيات البحث:

١. يفترض البحث أنَّ الشاعر المكزون السنجاري قد عاين فن الرثاء من ناحية التوظيف الديني.

٢. يفترض البحث أنَّ الرثاء فن كأي فن آخر من الأغراض الشعرية له ألفاظه وطقوسه الخاصة التي يودعها الشاعر في صور وتشكيلات مناسبة.

منهج البحث:

لقد اتبعنا في هذه الدراسة منهج تحليلي يقوم على استخدام الأدوات الإجرائية لتحليل الصور والتراكيب التي جسّدت آلية الرثاء من شعر المكزون السنجاري.

الدراسات السابقة:

١- دراسة بعنوان (رثاء الأبناء في الشعر العربي – أبو الحسن القيرواني انموذجاً، ابتهال محمد،جامعة الأنبار، قسم اللغة العربية، ٢٠٢٤، رسالة ماجستير.

٢- دراسة بعنوان (رثاء النفس في الشعر الأندلسي)، مقداد رحيم، ٢٠٠٧، دار النهضة.

٣- دراسة بعنوان (الرثاء جذور وأطوار، دراسة تحليلية في مراثي الجاهلية وصدر الإسلام)، حسين جمعة، ١٩٩٨، دار النمير للطباعة، دمشق، سوريا.

٤- دراسة بعنوان (رثاء المدن في الشعر الأندلسي)، عبد الرحمن علي، جامعة الخرطوم، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ١٩٧٥.

خطة البحث:

المقدمة.أهداف البحث أهمية البحث.فرضيات البحث.منهج البحث.الدراسات السابقة.التمهيد:

١- الرثاء بين النشأة والتطوّر :لقد شكّل الرثاء بأنواعه مادة مهمة في الشعر العربي منذ الجاهلية إلى يومنا الحاضر، فقد كان حاضراً في صور الشعراء منذ القدم، لأنه قد اقترن بالمناسبات ولا سيما ما شاع لدى الشعراء في أنهم قد اتجهوا إلى الرثاء كأبرز الأغراض الشعرية ولا سيما ما كان يعقب المعارك والحروب، وعلى أثر فقدان أحبابهم وأبنائهم وأقاربهم، إذ كانوا ينتهجون الرثاء فناً بارزاً يقوم على تفسير ظاهرة الحزن نتيجة الفقد لغالٍ على قلوبهم، فيسهبون في عرض فضائل المرثي وذكر أحسن ما كان عنده من مناقب.وعلى إثر ذلك، فقد شاع عند الشعراء رثاء الذات، فقد كان موجّهاً إلى خطاب النفس أو الذات الشاعرة، والرثاء في اللغة يتمحور حول تمجيد الخصال للميت وذكر فضائله ومناقبه الحسنة، ولذلك يكون مقابلاً المديح الذي هو تمجيد لخصال الحي دون الرثاء الذي يكون للميت، وفي اللغة "رثيتُ الميتَ رثياً ورثاء ومرثاةً ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته ورثوت الميت أيضاً إذا بكيته وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً" (ابن منظور، ١٤١٤هـ: مادة ورث)وقد جاء في الصحاح وفي المصباح المنير أنَّ الرثاء من "رثيت الميت أرثيه من باب رقى (مرثية) و(رثيت) له: ترحّمتُ ورقّقت له" (الجوهري، ١٩٩٩: ٣٠٦)ومع توالي العصور من عصر لآخر كان قد أخذ الرثاء ناحية العصر الذي أظهره الشعراء، ففي العصور اللاحقة للعصر الجاهلي من الإسلامي إلى العباسي إلى العصور الحديثة، فقد اكتسب الرثاء ميزة خاصة بكل عصر، وكثيراً ما كان يقترن بالأحداث التاريخية الواقعة، وكثيراً ما كان الرثاء إما في ناحية دينية أو اجتماعية.ففي الرثاء الديني كان الاحتفاء بالشخصيات الدينية التي كان لها الأثر الواضح في نفوس الناس، كما شاع في رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم وفي رثاء الخلفاء الراشدين وما جاء في سبيل ذلك، وأمّا الرثاء في الناحية الاجتماعية فقد كان مقترناً برثاء الأبناء والأقارب والأصدقاء.وقد عرّفه أحمد الهاشمي في أنه "الرثاء: وهو تعداد مناقب الميت، وإظهار التفجّع والتلهّف عليه، واستعظام المصيبة فيه" (الهاشمي، د.ت: ٣٤٣)، وقد شاع أن مجال الرثاء لم يقتصر على رثاء الأشخاص، فقد أُلحقت القصائد التي نظمها الشعراء في بكاء المدن والدول بالرثاء "يدخل في عداد الرثاء القصائد التي نظّمها الشعراء، في البكاء على الأمارات، والدوال البائدة، والعمران الزائل، والمجد الغابر" (عبد النور، ١٩٨٤: ١٢٠-١٢١)من ناحية أخرى، لقد شكّل النقاش حول آلية الرثاء مساحةً للتداول فيما إذا كان الرثاء قد بقي على سمته في العصر الجاهلي، أم أنه قد اتخذ طابعاً مختلفاً مع مرور الأيام والأزمنة.ولكيلا يحصل الخلط بين الرثاء والندب، فقد جهد المنظرون للتفريق بينهما بفارق مادي، فالرثاء كما يراه الدكتور شوقي ضيف ندب، وعزاء وتأبين، على أنه يرى أنَّ الشاعر الجاهلي قد استوفى هذه الجوانب الثلاثة، وقال في ذلك "وعلى هذا النحو ألمَّ الشاعر الجاهلي جوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء" (ضيف، د.ت: ٢١٠)إلا أنَّ الفارق الدقيق بين الرثاء والندب هو أنَّ "الندب اقتضاء الفعل بالقول، وفي اللغة ندبه لكذا، إذا دعاه إليه، والندب: أن يندب إنسان قوماً إلى أمر، أو حرب، أو معونة، أي يدعوهم إليه، فينتدون له، أي يُحييون ويُسارعون، وندب القوم إلى الأمر يندبهم ندباً، دعاهم وحثّهم، وانتدبوا إليه: أسرعوا، وانتدب القوم من ذوات أنفسهم" (ابن منظور، ١٤١٤هـ: مادة ندب)وقد أخذ الرثاء مع تطوّر معناه تقاطعاً مع عدد من الأشكال، فجاء في أنَّ الرثاء ليس واحداً، حيث يتم النظر إليه وفق عدد من الأقسام، ومنها ما يكون عن طريق الندب في أنه "هو بكاء النفس ساعة الاحتضار وبكاء الأهل والأقارب وكل من ينزل منزلة النفس والأهل من الأحباء وأخوة الفكر والاتجاه والمشرب، بل يمتد إلى رثاء العشيرة والوطن والدولة حين تُصاب بمحنة من المحن القاصمة المحزنة" (ضيف، ٢٠٠٧: ٩٤)وللتأبين ما يُلحق بمراحل الرثاء ويشكّل إحدى أقسامها، لأنه "يشرح السمات التي تميّز خاصية الرثاء، فهو أقرب إلى تعداد الخصال وإزجاء الثناء، إنه تنويه وإشادة بشخصية لامعة أو عزيز ذي منزلة في عشيرته أو مجتمعه" (أبو الخير، ٢٠٠٦: ٨٣)كما أنَّ للعزاء ما يشكّل تفسيراً كطقس يسهم في تشكيل الجو المتكامل للرثاء وعالمه لأنه "في مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين، إذ هو نفاد إلى ما وراء ظاهرة الموت وانتقال الراحل، وتأمل فكري في حقيقة الحياة والموت" (أبو الخير، ٢٠٠٦: ٥٣)لذلك تبقى آراء النقاد متفاوتة حول تحديد المعنى العام للرثاء، ومهما يكن، فقد شكّل مادة غزيرة عكسها الشعراء، "فهو باب فسيح الرحاب، والنوادي، فصيح اللسان في إجابة المنادي، ذي القلب الصاعدي، متباين الأسلوب، مختلف الأطراف، متباعد الشعوب منه ما يدمي القلوب بنباله، ومنه ما يسلبها بلطيف مقاله، ومنه ما يبعثها على الأسف، ومنه ما يصرفها على موارد التلف" (النويري، د.ت: ١٦٠)وبالنظر إلى ذلك، فإنَّ الرثاء ليس ندباً وعويلاً فحسب، بل يمتد حتى يحمل إشادة وثناء على الميت مع الوقوف على جوانب من شجاعته وكرمه وجوده، ونحو ذلك من مآثره ومناقبه التي سطّر بها حياته، ومن ذلك شكّل الرثاء أهمية عكسها الشعراء في العصور كافة، بينّت الصراعات والأوضاع التي كانت سائدة بما انعكست خلالها على رغبتهم برثاء أنفسهم والوصاية بكتابة المراثي على قبورهم بعد وفاتهم لتبقى الأيام شاهدة على ما مرّوا به وقاسوه في حياتهم.ومهما يكن من ذلك، فإنَّ الرثاء عند الشعراء مثله مثل أي غرض شعري آخر كالمديح و الغزل، له أسسه ومبادئه وصوره الخاصة، والتي كان لكل شاعر في عصره ما يشكّله في مجال الرثاء على تعدد أنواع صوره، وعلى تعدد الدوافع والعوامل التي أدت إلى كتابته لفن الرثاء سواء أكان في رثاء الأهل أو القبيلة أو سواه مما وجده الشعراء ما يستحق الرثاء في وقوفهم عنده.

٢-أنواع الرثاء:

١_الندب:الندب: يشكل معنى الندب في اللغة معنى النداء وما في هذا المجال(ابن منظور، د. ت: مادة (نَدب))، هو أن تدعو النادية الميت بحسن الثناء في قولها : وا فلاناه وا هناه وشعراً: هو أن يعبر الشاعر عن مشاعره الحزينة تجاه من يرثيه، والندب: هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية، والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون، والباكون ويصيحون، ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع (ضيف، د. ت: ١٢)وقد عرف العرب منذ العصور الماضية المآتم؛ حيث تجتمع النساء للصياح والعويل على الميت، وفي الإسلام نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصياح والعويل بل شدد في ذلك وإنما سمح بالبكاء من غير صوت بل بالدموع فقط، وذلك لما فيه من تنفيس عن أهل الميت وشفاء لمصابهم فيه، أي قد اقترن مفهوم الرثاء بالندب من خلال البكاء العالي.فقد كانت الأشعار تؤلف في ندب الموتى، ومع مضي الزمن انفصلت صناعة الندب عن صناعة الشعر، فأصبح هناك محترفون ومحترفات يعولون في المآتم بأشعار تصنع لهم (ضيف، د. ت: ١٢)وإذا تم النظر إلى الشعر العربي في شرقه أو غربه لوجدنا مظاهر الرثاء في الندب والنواح، وهو في أصله إنما يكون على الأهل والأقارب، وقد يبكي الشاعر نفسه ساعة الاحتضار حين يحس بالموت، يصور ألمه وأحزانه على فراق أهله وعشيرته وانتقاله إلى عالم آخر ليس له فيه أليف، أي قد شاع رثاء الذات عند الشعراء وكانوا قد أوصوا إلى جانب ذلك بكتابة ذلك على قبورهم. وقد يتحول هذا الندب والنواح إلى مأتم مع الأعوام والسنين وكأنها مأساة كبيرة يفسرها الشعراء في صور متعددة.

٢-التأبين:لقد ظهر التأبين النوع الثاني من أنواع الرثاء وقد جاء في اللغة أنه (ابن منظور، د. ت: (أبن)): هو مدح الإنسان بعد موته وبكاؤه أو ذكرته بعد موته بخير، أما شعراً فهو تعداد مآثر الميت، ومناقبه، والتغني بكريم خلاله، ونبيل سجاياه.وأصل التأبين الثناء على الشخص حياً أو ميتاً، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط، إذ كان من عادة العرب أن يقفوا على قبر الميت، فيذكروا مناقبه، ويعددوا فضائله، ويشهروا محامده، وشاع ذلك عندهم ودار بينهم، وأصبح في سننهم، و عاداتهم، إذ وقفوا على القبور كأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مر السنين (ضيف، د. ت: ٥٤)ونجد أن الرثاء دائر عند العرب، فالشعراء جميعاً لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين؛ بل يضيفون إليه إشارة بالميت كأنهم لا يبكونه فقط من أجل رابطة الدم التي تربطهم به، ونزوله وراء أستار وأحجار، بل هم يبكون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البادية، يبكون فيه الكرم والشجاعة، والوفاء، وحماية الجار، وإغاثة الملهوف والحلم والأنفة والكرم وركوب الصعاب والسماحة والفصاحة، والسيادة، والشرف وكل ما يزين الرجل في رأيهم من صفات وخلال وكأنما كان غرضهم من تأبينهم أن يصوروا تصويراً تاماً مدى الخسارة والمصيبة في الفقيد.يعتقد الباحثون أنه لم يترك الشعراء شريفاً، أو سيداً على مر العصور دون أن يقفوا على قبره وينثروا مدامعهم عليه ومراثيهم حتى عصرنا الحاضر، فقد بالغ العرب في طلب المديح وأن تجري ألسنة الشعراء فيهم بالثناء العطر ؛ فكانوا إذا رحلوا عن دنياهم شيعوهم بالعبرات.

٤-العزاء:العزا في اللغة (ابن منظور، د. ت: مادة عزاء): الصبر عن كل ما فقدت. ويقال إنه لعزى صبور إذا كان حسن العزاء على المصائب. وأما في الشعر فالعزاء هو عرض الأفكار، وإرسال الحكم والدعوة إلى التصبر والتأسي.وأصل العزاء ؛ الصبر ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت وأن يرضي من فقد عزيزاً بما فاجأه به القدر.وكان الشاعر يفكر في هذا كله؛ فكان يحزن، ويبكي ويلتاع ويعبر عن ذلك تعبيراً قوياً في شعره، ثم يعود إلى نفسه فيري أن كل ما يصنعه لا يغنيه شيئاً، لأن المحنة في حقيقتها محنة كبيرة؛ محنة الناس جميعاً، يمتحنون بها صباح مساء، ولا يستطيعون لها رداً ولا دفعاً. فليترك البكاء، والدموع، ليستسلم للموت مخذولاً، بل يائساً مقهوراً ؛ فالناس كلهم يموتون، والناس كلهم يصابون بحميم أو قريب.ونجد أن بعض الشعراء يمد بصره إلى أفق أوسع، فيري أن الحزن والبكاء لا يردان أحداً، وأنه حري به أن يكون جلداً ، صابراً على المصيبة التي تلم به، ولا يستشعر خذلاناً ولا ضعفاً. ولذلك كثيراً ما نرى وقوفاً عند مجالس العزاء للأبناء وبالذات وكان الشعراء أكثر قدرة على عكس أنواع الرثاء قديماً وحديثاً بكل مظاهره ومفرداته باعتباره من الأغراض الشعرية التي عاينت الناحية الوجدانية انطلاقاً من ذات الشاعر وصولاً إلى رثاء المقربين من الشاعر على اختلافهم.

المبحث الأول: آلية الرثاء وصوره في شعر المكزون السنجاري

لقد جاء الرثاء في شعر المكزون السنجاري قائماً على صور وتوظيفات متعددة، نجد فيها فن الرثاء في أبهى وأجمل حلله بما يتناوله في جانب المراثي وإظهار حسن الفضائل للمرثي.و القارئ لشعر المكزون السنجاري يلاحظ أنه أكثر رثائه جاء في التوجه للشخصيات التي كان لها أثراً بالغاً في النفوس، ولاسيما الشخصيات الدينية، ومن صور رثائه ما جاء في رثائه للشيخ إبراهيم صارم حيث كان قد بلغ حزنه أشده عليه، فجاء في نظمه قصيدة الرثاء لفقيده:

ما بال ربع العلى أقوت منازله فلا يجيب أخا شجو يسائله

ومعهد الأنس في عهد الصبا غربت أقماره وذوت منه خمائله
هذا سمي خليل الله قدوتنا غابت بحكم الردى عنا شمائله
فالروح طاهرة والجسم ذو شرف أكرم به وبما ضمت غلائله
هيهات هيهات أن تمضي مكارمه وأن تعدَّ بتمديد فضائله
أعظم بفقدك يا عماه داهية دهياء في كل قلب منك شاغله
عليك أزكى سلام الله ما بزغت شمس النهار وما حالت أصائله
إن غاب عنا فما غابت مآثر وإن جفانا فما جفَّ نائله
وذكر خالد بين الورى أبداً ما دام ينشد بيت الشعر قائله (الأحمد، ٢٠٠٩:١٨)

فكما نلاحظ إنَّ آلية الرثاء في النص السابق تستدعي المتلقي لتحفيز ذهنه في استقبال صورة متكاملة لطقس الرثاء من التمهيد حتى النهاية، حيث يبتدئ السنجاري بالاستفهام حول فداحة الموقف الحاصل (ما بال ربع العلى أقوت منازله)، ليتدرّج بعد ذلك إلى ذكر مشاركة كل من حوله لحقيقة المصاب (ومعهد الأنس في عهد الصبا غربت أقماره)، ليضعنا على خسارة المرثي في أنه استحقّ لقب التسمية (هذا سمّي خليل الله قدوتنا)، لتبلغ ذروة خاصية الرثاء في قوله (هيهات هيهات أن تمضي مكارمه، وأن تعدَّ بتمديد فضائله)، حين تبلغ الحكمة في رثائه في أنَّ هناك من يغيب ويبقى أثره خالداً على الدوام في قوله (إن غاب عنا فما غابت مآثر، وإن جفانا فما جفّت نائله، وذكر خالد بين الورى)، فالسنجاري يتجه في الرثاء شأنه في ذلك شأن من يرثي فقيداً يستحق الرثاء ولا سيما أنه يتوجه في رثائه إلى شخص يستحق هذا الذكر بعد رحيله عن الحياة ليبقى ذكره ومآثره خالدة أبداً. وكذلك نجده يتبع الطريقة نفسها في رثاء الشيخ ديب أحمد، حيث تبلغ حرارة العاطفة وشفافيتها في قوله مباشرة:

ورد المنية لم يكذبك رائده هو السبيل وكل الناس وارده
لما مررت على ربع الحبيب ضحى وقفت بالمعهد الباقي أناشده
هذا أبو أحمد ديب الشهير نأى يا حسرتي راح ما عدنا نشاهده
توسّد الثرى ذياك الإمام وقد كانت من البر والتقوى وسائده
الذاكر الله في علم اليقين وفي عين اليقين بإخلاص يشاهده
والعابد الزاهد الآواب يؤنسه ذكر المهيمن ليلا نام راقده
مطهّر النفس قد طابت مدائحه نشراً وعن حصرها حلّت محامده (الأحمد، ٢٠٠٩:١٨)

إنَّ السنجاري في هذه الصورة الرثائية التي يجسّدها في شخص الشيخ الراحل يُعطي حكمة الإيمان بحتمية الموت في قوله (ورد المنية لم يكذبك رائده هو السبيل وكل الناس وارده)، يضعنا السنجاري قبل تصوّر حقيقية عدم القدرة على رد المنية، تلك الحكمة في استقبال حتمية الموت بلا منازع، فقد كان ذلك من نصيب المرثي شيخه كما يصوّر لنا، لينتقل بعد ذلك إلى استحضار حالة العزاء والسلوى لنفسه، إذ يلجأ إلى ما يُهدّي من لوعته على فراق من أحبه (لما مررت على ربع الحبيب ضحى وقفت بالمعهد الباقي أناشده)، ففي الوقوف على ربع الفقيد ما يعطي السنجاري شيئاً من الراحة والعزاء الذي يكسبه لنفسه، ليقرّ فداحة ما حصل في قوله (هذا أبو أحمد ديب الشهير نأى يا حسرتي راح ما عدنا نشاهده)، وإلى جانب ذلك يبلغنا حالة الأسى والتفجّع التي نالت القلوب بعد فقد الشيخ الغالي لينتقل بعد ذلك إلى ما هو لازم في ناحية الرثاء، فالذي يقوم بالرثاء أول ما يلجأ إليه هو تعداد مناقب المرثي لأنَّ ذلك يخفف من وطأة الحزن والفقد على النفس، فهو (ذاكر الله، مخلص، العابد، الزاهد، مطهّر النفس)، فيرصد السنجاري ما استطاع من وصف لما استحقه المرثي من مناقب وصفات حميدة.ومن آلية الرثاء عند السنجاري ما نجده فيه معنى الرثاء مجسداً بشكل غير مباشر، لأنه قد لا يُدلي بذلك بصورة مباشرة، ومن ذلك ما جاء في قوله:

يا مَن كَلِفتُ بِحُبِّهِ إذ كانَ عَن عَينِ المَلاحِظِ بِالحَيا مُتَبَرقِعا
وَمَنَحتُهُ صَفوَ المَوَدَّةِ باذلاً لِلنَفسِ فيهِ حَيثُ كانَ مُمَنَّعا
وَأَرَيتُهُ وَجهَ النَصيحَةِ راغِباً في أَن يَكونَ عَنِ الخَنا مُتَرَفِّعا
وَحَفِظتُهُ جُهدي وَلَكِن رَأيُهُ الـ بادي أَبى أَلّا يَكونَ مُضَيَّعا
أَخلَفتُ حُسنَ الظَنَّ فيكَ فَهُن عَلى قُربِ المَزارِ فَلا رَجِعتَ مُوَدَّعا
أَو لَم تَكُن أَعطَيتَني عَهداً عَلى أَن لا تَزالَ عَنِ الوَرى مُتَبَرقِعا

فَرَفَضتُ يَأسي مِنكَ لَمّا لَم أَجِد لي بِالنَصيحَةِ في صَلاحِكَ مَطمَعا (الأحمد، ٢٠٠٩:١٨)

فكما نلاحظ إنَّ السنجاري يستحضر في هذه الصورة ملامح الرثاء بشكل غير مباشر، وكأنه يورد ذلك بطريقة كنائية تسهم في جعل المتلقي في استعداد لمعاينة الفكرة القائمة على عزاء النفس وتسليتها بما يخفّف من وطأة حزنها، إذ يبتدئ صراحة بالحديث عن قيمة المرثي في قوله (يا مَن كَلِفتُ بِحُبّهِ إذ كانَ عَن عَينِ المَلاحِظِ)، ليرصد بشكل متتابع أثر الفقد على نفسه، ويذهب في ظلال ذلك إلى تفسير الصورة بما يعطي رمزية الرثاء ودلالتها في سياقها الدلالي.وكثيراً ما اقترنت صورة الرثاء عند السنجاري بحتمية الموت، "فالأجل هو المصير المحتوم لأي إنسان خلقه الله على وجه البسيطة، فليس له أي فكاك من براثنه مهما اجتهد وحاول، والإنسان لم يركن لهذا المصير المحتوم، بل سعى منذ الأزل وراء الخلود متعلقاً بكل ما أمن من أسباب (الشهرستاني، ١٩٨٦: ٢/ ٢٣٥).وما نجده من أوصاف وصور تفسّر غرض الرثاء في ما يرثيه السنجاري يتقاطع مع دلالة واضحة في الإشارة إلى أنَّ الموت حقيقة حتمية، إلا أنَّ الرثاء يساعد صاحبه على التماس ما يُعلل الحزن ويلهم الصبر على مرارة الفقد والفراق.

المبحث الثاني: دوافع الرثاء في شعر المكزون السنجاري

لقد تعدّدت دوافع الرثاء عند المكزون السنجاري، ومن الدوافع التي أدت إلى بلورة صورة الرثاء ما استشعره السنجاري في شعوره بالفقد والحزن لما آلت إليه كربلاء وحزنه على فقد عظيم شخص الحسين، وقد جاء في هذه الدوافع تصوير صورة الرثاء في أبهى شكل ومظهر يمكن أن يقرأ في مجال الرثاء، حيث جاء في قوله:

داءٌ ثَوى بِفُؤادِ شَفَّهُ سَقمُ يا مَحنَتي مِن دَواعي الهَمّ وَالنَكَدِ
يا أضلُعي لَهَبٌ تَكوي حَرارَتُهُ مِنَ الضَنا في مَحَلّ الرَوحِ بِالجَسَدِ
يَومَ النَوى ظَلَّ في قَلبي لَهُ أَلَمُ وَاِحرَقَتي وَتَلافي فيهِ بِالرَصَدِ
تَوَجُّعي مِن جوىً شَبَّت شَرارَتُهُ مَعَ العَنا قَد رَثى لي فيهِ ذو الحَسَد (الأحمد، ٢٠٠٩: ٦٧١)

يطالعنا السنجاري في هذه الصورة الرثائية، حيث يصف المآل الذي أصبحت إليه الأحوال بعد الحادثة التي قلبت الأحوال بعد فقد شخص الحسين والحزن على ما حدث في كربلاء، حيث تبلغ ذروة الحزن في ناحية الرثاء في قوله في صورة مشهدية متتابعة:

أَصلُ الهَوى مُلبِسي وَجدي بِهِ عَدَمُ لِمُهجَتي مَن رَشا بِالحُسنِ مُنفَرِدِ
تَتَّبِعُني وَجهُ مَن تَزهو نَضارَتُهُ لِما جِني مورِثي وَجداً مَدى الأَمَد (الأحمد، ٢٠٠٩: ٦٧١)

حيث يبلغ رثاؤه أقصاه عندما يتطلب السلوى إلى نفسه والعزاء لما حلَّ به، وذلك ما جاء في قوله:

قلبي كوى مالك بالحسن محتكم لغصتي وهو سؤلي ثم معتمدي
مودعي سار لا شطت زيارته لما انثنى قاتلي عمداً بلا قودِ (الأحمد، ٢٠٠٩: ٦٧١)

ومن دوافع الرثاء عند السنجاري ما نجده قد نظمه في معرض الإشارة إلى حدث سابق في العصور الماضية، إلا أنه ينظم ذلك في حالة تبعث على رثاء ما مضى، ومن هذا التصوير ما جاء في قوله:

في حالتي قربهم والبعد جادوا أم بخلوا
جاروا على ضعفي بطول هجرهم أم عدلوا
ولن أرى تبدلاً بهم وإن تبدّلوا (الأحمد، ٢٠٠٩: ٤٩٧)

فكما يبدو في سياق الأبيات السابقة إنَّ السنجاري يسعى من خلال الاستذكار والرثاء إلى عكس دلالة ذلك من الوقع الجسيم على نفسه، ليشير إلى أنَّ حبه ثابت على كل حالة إن قطعوا أو وصلوا أو أجادوا، ثم يتابع ذلك بذكر أوصافهم التي كانوا عليها:

هم أهل بدرٍ غير مأ ثومين فيما فعلوا
ما فيَّ عضو وهو من حبهم مُعطل
ولم يزل وجدي بهم لآنه مؤزّلُ
لهفي على قربهم وليلُ فودي أليلُ
ودون منهل دموعي ردّهم لي منهلُ
وخيفهم لي مأمنٌ من خوفهم ومعقلُ

وكل ذي وجه جميلٍ فيه عندي مجملُ (الأحمد، ٢٠٠٩: ٤٩٨– ٤٩٩)

ومن الدوافع للرثاء عند السنجاري ما نجده يقوم على ناحية الوعظ والتوجيه، ولا سيما ما يظهر في صورة رثائه لشخص النبي الكريم محمد صلى الله عليه وآله سلم، إذ يستحضر الصور الجميلة التي ترسخ جمالية الرثاء التي يستحقها المرثي في ذلك:

لأحمدَ في الذكرِ وصفٌ عظيم رسول بني رؤوف رحيم
شهيد بشير سراجٌ منيرٌ سميعٌ بصيرٌ خبيرٌ عليم
نذيرٌ مجيرٌ وليٌّ نصيرٌ وساع وداع وراعٍ حميم
كتاب مبينٌ قوي أمين مكانٌ متين صراطٌ مستقيم
ذكورٌ شكورٌ صبورٌ وقورٌ حميدٌ مجيدٌ غفورٌ حليم (الأحمد، ٢٠٠٩: ٦٧٦)

يطالع السنجاري القارئ من خلال هذه القصيدة التي تنمّ عن حالة التحسّر لشخص كريم كما في شخص النبي الكريم ليشعر القارئ بحالة من الاندماج في التعاطف مع الأثر النفسي الذي يقاسيه السنجاري، فيعمد إلى تعداد الخصال والمناقب التي هي معروفة، لا مجال للوقوف عندها (كتاب مبين، شكور، صبور، وقور، حميد، مجيد).وقد نلمح من دوافع الرثاء رثاء الأماكن والديار التي كانت تشكّل مصدر راحته واطمئنانه، ومن ذلك ما نجده في هذه اللوحة التي تنمّ عن حالة الفقد إثر شعوره بالابتعاد عن حدود المكان:

ألا هَلْ إلى داري بوادي طويلع وإن بعدت بعد الرحيل قفولُ؟
وهل عائدٌ فيها الزمان الذي انقضى قصيراً فلي حزنٌ عليه طويلُ؟
وهل لصدى قلبي إلى وردِ موردٍ الحمى والشرابُ السلسبيل سبيلُ؟
وصل من هجر الهجر لي بظلالها مقيلٌ له ومن سوءِ العثار مقيلُ؟ (الأحمد، ٢٠٠٩: ٦٧٩– ٦٨٠)

يشعرنا السنجاري في هذه الأبيات بحالة التأسي والحزن على شعوره بالبين والفراق، ليترك الحال في حالة رثاء لما كان يسكن روحه، أي إلى ما يتوجّه إليه (ألا هَلْ إلى داري بوادي طويلع وإن بعدت بعد الرحيل قفولُ؟) حيث جاء التساؤل ما يفتح طاقة دلالية يسهم في إعطاء السياق أبعاد نفسية متواشجة مع ذاتية السنجاري في حزنه لما آلت إليه الأمور، فينظم هذه الأبيات بما يتضافر مع المعنى النفسي للرثاء، فقد يكون الرثاء يعالج إحساس الشاعر بالتأسف على ضياع جملة الذكريات المقترنة بالمكان، "فالراثي يشعر بالتحسّر على ما فات ومضى وذلك بإحساسه بأنَّ النفس في تلك اللحظة تتهيّج بفعل ذكريات الماضي وأيام الشباب والقوة، فيعبّر عنها بنوع من الأسى والحزن على فقدانها" (الصائغ، ١٩٨٦: ١٧)وقد يكون الرثاء بدافع معنوي يبعث على تأجيج المشاعر وتأرجحها عند القائم بالرثاء، ومن ذلك ما جاء في قول السنجاري فيما يتوجه اليه مباشرة عبر فعل النداء:

يا ذاهباً عني ومالي عن هواه مذهبُ
ومعذلي وعذابه بسوى الجفا يتعذّب
أبعدتني وأنا إليك بمهجتي أتقرّب (الأحمد، ٢٠٠٩: ٦٨٥)

فالرثاء بدافع من قبيل التوجّه المباشر إلى مخاطبه في قوله (يا ذاهباً عني ومالي)، ليذهب السنجاري فيما بعد إلى تعداد مآثر المرثي في نفسه (معذلي، أبعدتني)، فكل ذلك يتبع في شخص المرثي المتوجّه إليه مباشرة.

الخاتمة:

- إنَّ آلية الرثاء عند المكزون السنجاري عكست تركيز السنجاري على تناول المعاني والصور القائمة على خاصية المراثي الدينية.
- إنَّ صور الرثاء عند السنجاري تأخذ طابعاً واحداً وهي أنها متضمنة للمعاني ذات الألفاظ التي تنتمي إلى حقل دلالي واحد، فقد تناولت مفهوم الزهد والتقوى والورع في أكثره.
- إنَّ تركيز المكزون السنجاري على التمهيد للرثاء ثم ذكر مناقب المرثي من خلال ذكر مناقبه وخصاله ما حقق الطريقة المعتادة في النظم في هذا الفن.
- إنَّ تركيز السنجاري في ناحية الرثاء كان من خلال عدة دوافع أدّت به إلى النظم في الرثاء وفقاً لكل عامل متواشج مع حاجته الى الرثاء في ذلك.

المصادر والمراجع:

١. تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، د. ت.
٢. جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد الهاشمي، دار الفكر للطباعة والنشر، د. ت.
٣. ديوان المكزون السنجاري، شرح: العلّامة سليمان الأحمد، مؤسسة البلاغ، ط١، بيروت، لبنان، ٢٠٠٩.
٤. الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٧.
٥. الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الله الصائغ، دار الشؤون الثقافية، ط١، بغداد، ١٩٨٦.
٦. شعر رثاء النفس حتى نهاية العصر العباسي، محمود أبو الخير، دار جهينة، ط١، عمان، ٢٠٠٦.
٧. الصحاح وتاج اللغة، أبو نصر الجوهري، تحقيق: الدكتور اميل يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٩.
٨. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط٣، بيروت، ١٤١٤هـ.
٩. المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، لبنان، ١٩٨٤.
١٠. الملل والنحل، أبو الفتح الشهرستاني، تحقيق: محمد كيلاني، دار صعب، بيروت، ١٩٨٦.
١١. نهاية الأرب، شهاب الدين النويري، تحقيق: يحيى الشامي، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

Sources and References

1-History of Arabic Literature, the Pre-Islamic Era, Shawqi Dayf, Dar Al-Maaref, n.d

2-Jewels of Literature in the Literature and Composition of the Arabic Language, Ahmed Al-Hashemi, Dar Al-Fikr for Printing and Publishing, n.d

3-Diwan Al-Makzun Al-Sinjari, Explanation: Allama Suleiman Al-Ahmad, Al-Balagh Foundation, 1st ed., Beirut, Lebanon, 2009

Elegy, Shawqi Dayf, Dar Al-Maaref, Cairo, 2007 4-

5-Time among Arab Poets before Islam, Abdullah Al-Sayegh, Dar Al-Shu'un Al-Thaqafiyah, 1st ed., Baghdad, 1986

6-Poetry of Elegy of the Self until the End of the Abbasid Era, Mahmoud Abu Al-Khair, Dar Juhayna, 1st ed., Amman, 2006

7-Al-Sahih and the Crown of Language, Abu Nasr Al-Jawhari, Investigation: Dr. Emil Yaqoub, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, 1st ed., Beirut, 1999

Lisan al-Arab, Ibn Manzur, Dar Sadir, 3rd ed., Beirut, 1414 AH 8

9-Literary Dictionary, Jabbour Abdul Nour, Dar Al-Ilm Lil-Malayin, 2nd ed., Beirut, Lebanon, 1984

10-Religions and Sects, Abu Al-Fath Al-Shahrastani, edited by: Muhammad Kilani, Dar Saab, Beirut, 1986

11-Nihayat Al-Arab, Shihab Al-Din Al-Nuwayri, edited by: Yahya Al-Shami, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, n.d